فلعله باد هنا بجلاء أن الموسيقى لا تنبض من داخل الكلمات، مثلما أنها تتردد على سطح السلسلة اللفظية لا في أعماقها. ومع أن الألفاظ تتسم بالقوة إذا ما أُخذت كل واحدة منها على حدة، فإن سوء ادارتها قد استلبها طاقتها الايحائية، وكذلك القدرة على تحريض الانفعال العميق. وكما أسلفت، ليست الموسيقى الأصيلة من انتاج الوزن وحده، وهو الوزن الناجم عن معدل سرعة النسيج الكلامي، بل هي كذلك من انتاج الطاقة الافصاحية للألفاظ، أو قل من التعاضد الجدلي القائم بين هذين الينبوعين. فقلما يقع الشاعر في الركاكة المضمونية دون أن يتردى المستوى الموسيقي لشعره. فالايقاع يعجز عن النهوض بوظيفته التعبيرية حين يعزل عن المعنى، وحين يكتفى بالتمطي فوق سطح المضمون، لا بالإيغال في قلبه بحيث يؤلف نبضه الصميمي من الداخل. والآن يمكن القول بأن الموسيقى تملك، في بعض الأحيان، أن تلتغم في الألفاظ، وكذلك في المضمون، ابتغاء انجاز مقام شعري أصيل، ولكنها تخفق في هذا المضمار في أحيان اخرى تكاد تملأ أكثر من نصف شعر المرحلة الثانية من مراحل فدوى طوقان.

أما القافية، فما لم تنهض بوظيفتها في خدمة المعنى وانجاز الايحاء على الوجه الأمثل، فإن التخلص منها هو الأصوب والأفضل.

في المقطع الأول من القصيدة التي بين أيدينا، حيث يسود الحس الطللي بأصالة، ترى كلمة «الدار» وهي تتواتر في القافية أربع مرات، وتتقفى معها كذلك كلمة «أخبار» التي توحي بترابط شديد بين الدار وماضيها. وقد جاءت الأبيات الاولى من هذه الفقرة بغير ما تقفية على الاطلاق، وذلك لأن «الفوضى» التي تريد تصويرها قد تحتاج إلى تسيب في التقفية من شأنه أن يسهم «بالايحاء» بالفوضى. وفي أواخر الفقرة ترتد القوافي بعضها على بعضها الآخر ليحيل اللاحق منها إلى السابق:

وأين همو؟/ وأين همو؟
ولم ينطق حطام الدار،
ولم ينطق هناك سوى غيابهمو.

وهنا نلاحظ كيف ترتد «غيابهمو» على «أين همو؟»، لا ارتداداً إيقاعياً متناغماً فحسب، بل وارتداداً مضمونياً يخدم الفكرة ويجليها. فحين تتساءل الشاعرة عن وجودهم فإن الصدى يجيء بكلمة «غيابهمو» كاجابة على التساؤل الملحاح. وعلى مبدأ الارتداد نفسه تحال كلمات الرويّ التالية احداها إلى الاخرى: «الهجران»، «وكان»، ثم «وكان» الثانية، وأخيراً «بالأحزان». فهذه الكلمات الأربع التي تمثل قافية واحدة تنطوي في الحقيقة على مضمون واحد. والأهم من ذلك أنها امتداد للمضمون الطللي الذي يعزف المقطع على وتره.

ويستمر مبدأ الاحالة والرد في المقطع الثاني، ولكننا حين ننتقل إلى الثالث فإننا نجد أن مبدأ الاحالة والرد قد انقطع. فالترابط بين «الأمس» و«الشمس» واه إلى درجة كبيرة، كما أن «العتمة» لا تحيل إلى «النهمة»، ولا تتعلق بها البتة، فضلاً عن أنها مفصولة عن